

في مقدمة كتابه "الغزل عند العرب" يحاول ان يبين تعريفاً للعدزية اعتماداً على آراء مستشرقين آخرين ، فعند "ج. بلري" "أنه ذلك الوجد المشبوب والصوفي تقريباً والذي مازال، مع ذلك شهوانياً". وفسر "جانروا" العدزية بقوله: "أليست العدزية ذلك الحب المحتوم الذي عرفه القدماء، ويقابله بالعربية العشق عند المعتزلة، الذي ينتزع الإنسان من ذاته ... وليست أيضاً تلك العبادة الخاشعة للجمال، وتلك ال سورة الصوفية المنزهة عن كل شهوة .. وليست أخيراً، ذلك الهوى العصري الضخم الذي أنعشه التأمل في بعض الحقائق الأزلية التي تلقى صداها في النفوس جميعاً"<sup>(١)</sup>. ويرى "دينيس دي روجمون" احد مؤرخي الحبّ العدزي- أن العدزية هي : "الدين الأدبي للحب العفيف والمرأة المؤتملة- مثلاً- مصحوباً بالتقوى الخاصة به وطوقسه الدقيقة.. وقاعدته الأخلاقية القائمة على الاحترام وإسداء العون، ونظامه اللاهوتي وصراعاته اللاهوتية..<sup>(٢)</sup>".

ويستبعد "فلهي" ان يكون عند العرب "شعر غزلي"، وان ما يقوم مقامه هو "النسيب" ويمثل النسيب الذي تعود أقدم نماذجه إلى القرن السادس الميلادي فناً مكتملاً وصناعياً، على الرغم من أنه بدوي لأنه لم يتعرف فيه إلى العاطفة أو الأشكال الأولى لولادته ونشأته . وان النسيب قد ارتبط بالقصيدة التقليدية وأنه جزء متمم لها لأنها تبتدأ به مطل عاً لها، وأنه لابد لكل قصيدة ان تبتدأ بهوان كان ثمة قصائد بلا نسيب، فالشاعر الجاهلي التزمه في المديح والهجاء وتمجيداً لانتصار حزبٍ على آخر <sup>(٣)</sup>، كالذي وجد لدى عنتره الذي عجل بعد استح صار مقتضب

(١) منشأ الشعر الغنائي ٩٥/٢. مأخوذ عن: الغزل عند العرب فاديه: ٧/١ (في الهامش).

(٢) الحب والغرب، ٨٤. نقلاً عن: الغزل عند العرب فاديه: ٨-٧/١.

(٣) الغزل عند العرب فاديه ٣٧/١-٣٨.

لغرامياته إلى إشهار مجد قومه<sup>(١)</sup> وقد يكون النسيب أكثر غزارة دون أن تكون أجزاؤه أكثر تلاحماً أو اتصالاً بما يتلوه . ولأصلالة مصدر القصائد التي احتواها ديوان الشعراء الستة للمستشرق الألماني "الفرت" والشعراء هم: النابغة، عنتره، طرفة، زهير، علقمة، أمروء القيس. بل إن أكثر هؤلاء ثقة هما زهير والنابغة. فان زهيراً "شعر أهل الجاهلية" كما يذكر صاحب الأغاني<sup>(٢)</sup>. وفي شعر زهير - حتى معلقته - يشعر المرء برصانة النسيب رصانة مدهشة تتناقض مع مغامرات عنتره وأمروء القيس اللذين أصبحا بطلي رواية غرامية، على ان زهيراً احتفظ بنكهته البدوية ولم يُهَنَّ له من شعره إلا مرتلن<sup>(٣)</sup>، ويمكن تقييم النسيب في الأزمنة الجاهلية بأن توكل إلى حد ما إلى زهير. وينزع النسيب عند الأعشى إلى إغناء نسجه ليغدو قواماً للقصيد كالذي في قصيدته "ودع هريرة..". أو يشمل النسيب المحاورات والوقائع كما في معلقة امرئ القيس، وهو ابرز تغ بير يمكن تسجيله إذ انه ين بئ بالشعر الغزلي في العصر الأموي.

ويعرض "فاديه" لثلاث حالات يمكن ان توجز محتوى النسيب، كما جاء في دراسة "ليشستر": "النسيب في القصائد العربية " وهي : الأولى عودة الحبيب إلى الأطلال المهجورة وذرف الدموع، والثانية فراق الحبيين عند السحر، والثالثة طيف المحبوبة القادم لزيارة الحبيب ليلاً. لكنه يعود للقول أنه لابد من وجود موضوعات كثيرة يمكن ان يشكل كل منها نسيباً وهو ما يسمى "بالمواضيع التحتية" من مثل رحيل المحبوبة وخطاب الحبيب للمحبوبة لدى زيارته لها، ودور صاحبيه عند الطلل ونواح الحمام ونعيق الغراب المؤذن بالفراق، وهذه المواقف لم تكن نتيجة منطقية لسلوك الشاعر فيها. فالبكاء على الاطلال ليس سوى تراكبٍ لمواضيع تحتية موجودة

(١) ينظر: ديهان الشعراء الستة - شعر عنتره، القصيدة (٧). جمع الفرت.

(٢) الأغاني ٢٨٨/١٠.

(٣) ينظر: الاغاني ٢٩٨/١٠، ٣٠٢.

في مكان آخر، ومن ثم فهذا البكاء من الشعر المتكلف ولعل عناصره المكونة كانت أكثر عضوية، وربما أكثر قدماً<sup>(١)</sup>، فليس كل قصائد الشعر الجاهلي المكتملة يفترض ابتداؤها بالإطلال، فمنها ما تبدأ بالنسيب أو بكاء الشباب أو ذكر المشيب.

إنّ مواقف النسيب الكبرى تتولد بدءاً من المواضيع التحتية وهذه لها استقلالها وإن بعضها لا ينفك من الظهور في المطلع، وإن وحدة النسيب لا تستند إلى السياق أو إلى سيرة الشاعر - في أحيان كثيرة - بل هي - على الأصح - وفية للتقاليد<sup>(٢)</sup>. ويجب التمييز بين طرائق استحضر الذكرى وبين الحب في النسيب وهو يشتمل على السراء وصف المحبوبة أو وصف العواطف التي تتساور الحبيب، فضلاً عن وصف المواقف التي وجد فيها بال نسبة للمحبة . فالنسيب يحكي دوماً عن حب منصرم وبذا فإنه يشتمل على زمنين : الأول حين يتكلم الشاعر، والثاني حين كان عاشقاً، وإن النسيب يستدعي في الأصل أن يكون الشاعر قد شفي من ألم الحب . وعلى كل حال فإن الزمنين متميزان وينزعان إلى التميز في أكثر أشكال النسيب تعقيداً<sup>(٣)</sup>. لكن لماذا يلجأ الشاعر دوماً إلى التلبّـه "أي تذكر الأحداث الماضية " إذا كان المهم لديه وصف الحب وغرامياته . وهنا يكمن سر النسيب الذي يجعله شديد الاختلاف عن القصائد الغزلية في بقية الآداب حتى السامية منها، مع نزوع الشاعر أكثر فأكثر إلى الانصراف عن قصة هواه لوصف لحظة التأبه..<sup>(٤)</sup>.

ومن تلك الطرائق "غداة البين" و"البين" و"بانت سعاد" وقد أجادت "ليشرتر" أجادة فائقة في وصفها وبخاصة ملامحها الخارجية، وأصبح البين، في حد ذاته أكثر مواضيع النسيب اتقاناً، موضوعاً ثانوياً . وإنّ غداة "البين" و"البين" موضوعان تأرق

(١) ينظر: الغزل عند العرب فاديه ٤٦/١ .

(٢) ينظر: الغزل عند العرب، فاديه ٤٩/١ .

(٣) ينظر: الغزل عند العرب، فاديه ٤٩/١ .

(٤) ينظر: الغزل عند العرب، فاديه ٥٠/١ .

الشاعر في صوغهما إعداداً لروايته الغرامية الصغيرة . وقد يكون حزن الشاعر معاصراً تقريباً للحوادث، إذ ليس ثمة بحث عن الذكرى، وقد يتخذ هذا الحزن أشكالاً بعيدة جداً، أحياناً، عن العذرية <sup>(١)</sup> والمهم في ذلك تلك الأشكال أكثر من التفاصيل الخارجية كلون ستائر الهودج الحمراء ومشى جمال القافلة الوئيد <sup>(٢)</sup>. فللبين في حياة الشاعر العاطفية في مظهره الأكثر بدائية قد يكون في حالات يغتبط فيها الحبيب من قطع صلته بالحببية متى ما يشاء، أي عندما لا يلقى أية استجابة من محبوبته، عندئذ البين حادث عادي في حياته؛ وقد عبر عن ذلك الشاعر تأبط شراً، بقوله:

إني إذا خلة ضنّ ت بنائلها وأمسكت بضعيف الوصل أحذاق  
نجوت منها نجائي من بجيلة إذ ألقى ليلة خبت الرهط أرواقي <sup>(٣)</sup>

أو يتصور هذا الشاعر البدائي علاقاته مع محبوباته على مثال العلاقات السائدة بين قبيلتين متحدتين أو متجاورتين - مؤقتاً -، فيعتمد إلى استعمال كلمات الودّ والعهد والحبل نفسها في بيان طبيعة العلاقة مع الق بائل الآخر، بيد أنّ الودّ الذي نكّنه قبيلة لأخرى لا يلزم هذه القيام بتضحيات مسيئة لشرفها أو كبريائها، كالذي نقرؤه في شعر بشر بن أبي خازم:

الا أبلغ بني سعد رسولاً ومو لا هم فقد ح لبت ص رام  
نسومكم الرشاد ونحن قوم لت ارك ودنا في الحرب ذام  
فإذا صفرت عياب الودّ منكم ولم يك بيننا فيها ذ مام

<sup>(١)</sup> ينظر: الغزل عند العرب، فاديه ٥٠/١-٥١.

<sup>(٢)</sup> بقصد بذلك ظعن زهير في معلقته:

علون بأنماط عتاق وكلة وراذ حواشيها مشاكهة الدم

<sup>(٣)</sup> ديوان تأبط شراً: ٤٨.

## فإن الجزعَ جزعَ عريتنا عيهُلٍ منك م حرامٌ (١)

فعلى ما يبدو أنّ لموضوع "البين" جذوراً اجتماعية، والشاعر - الحبيب - لن يستطيع معايشة محبوبته إذا لم يكن - إلى حد ما - على وفاق مع قبيلتها، وإذا لم يكن عقد معها "اتفاق تعايش Modus- Vivendi" ذا صيغة وطقس واضحين. وقد يكون البين، أحياناً، خصاماً بين الحبيب وعشيرة المحبوبة، أو بين القبيلتين فيمتنع الفريقان عندئذ عن ا لمجاورة وتكون المحبوبة - مع قبيلتها - مذنبه لقطعها روابط حسن الجوار (٢). وقد تختفي - أحياناً - شخصية المحبوبة تمام الاختفاء خلف إرادة القبيلة، وإذا كان ثمة تجاوب عاطفي بين الشاعر وتلك العشيرة، ففي قلبه متسع يحمله على أن يعشق أبكار الحي كافة؛ كالذي تقرأه عند المرقش الأكبر:

ألا بان جيراني ولست بعائف ِ أدانٍ بهم صرفُ النوى أم مُ خالفي  
وفي الحيّ أبكارٌ سَ بينَ فؤادَ ه عُلالة ما زوّ دُن والحبُّ شاعفي  
دِقاقُ الخصورِ لم تُعفو قرونها لشجوٍ ولم يحضرن حُ م ي المزالف (٣)

وفي لحظات أُخَر يتوارى الجيران والمحبوبة - بالابتعاد والهجر - وعندها لا يكون للمحبوبة رأي ما وهي أبعد من ان تمارس لعبة الغنج الخطرة مع الشاعر، لذا يقول بشر بن أبي خازم:

أحاذر ان تبیت بنو عقيل ِ بجارتنا فقد حق الحذار (١)

(١) ديوان بشر: ٢٠٦-٢٠٧.

(٢) ينظر: الغزل عند العرب، فاديه ٥٣/١-٥٤.

(٣) المفضليات ٣١/٢، (تحقيق وشرح، شاعر وهارون) العائف: الذي يزجر الطير، العلالة: ما يتعلل به ويتلهى. شاعفي: أي شغفه الحب وحرارته إذا وصل إلى شغف قلبه. تغفر: يمسه التراب لصيبة. القرون: الضفائر. المزالف: القرى تكون بين الريف والبادية.

وبسبب الخصام بين القبيلتين تبتعد المحبوبة عن الشاعر - الحبيب - من دون ان تودعه فيراها قد أذنبت بحقه وقطعت روابط حسن الجوار وليس فراق العاشقين الا قطع الشاعر علاقته مع عشيرة المحبوبة<sup>(١)</sup>؛ يقول الشنفرى:

ألا أم عمرو أ جمعت فاستقلّت تِ وما ودّ عتّ جيرانَها إذ تولّت  
فيا جارتى وانتِ غيرُ مُليمةٍ إذا ذكّرتِ ولا بذات تِ فلّ تِ<sup>(٢)</sup>

وفي نوع آخر من التأبّه وتذكر الماضي يجد "فاديه" في ذلك تأسف الشاعر على شبابه الجميل حين رؤيته المشيب، ويكون الشاعر بعيداً عن البكاء على الأطلال، وان ليس لشخصية المحبوبة - أصلاً - قيمة إلا بقدر الحسرة التي توحى بها إلى الشاعر، وإلا لأنها جزء من أجمل فصول حياته . وتبدو حسراته مقتصدة، وتذكر محبوبة أو محبوبات كعشق الفتيات الحسان أو نساء القبيلة المؤملات.

وفي ظاهر موضوع المشيب والشيخوخة يفترض ان الحبيب لم ير محبوبته منذ زمن بعيد، وبما أنه لم يدرك تصرّم الأيام لضلالة أو حب أو بدافع نزوات الذكرى، فهو لن يفقه أبداً أنه يستحيل على حبه الذي بعث فجأة ان يقابل بحبّ مماثل، وفي نظره أن ليس في الإمكان الشعور بحبّ صادق نحو عجوز مخدوع إذ يقول علقمة مؤكداً تلك الحقيقة:

فأن تسألوني بالنساء فأنني بص يرّ بأدواء النساءِ طبيبُ  
إذا شاب رأس المرء أو قلّ ماله فليس له من ودّه نصيبُ

(١) ديوانه: ٦٢.

(٢) ينظر: الغزل عند العرب، فاديه ٥٥/١.

(٣) المفضليات ١٠٦/١، نقلت: تبغضت.

أراهن لا يحبين من قلّ مالٌ هُ ولا من رأين الشيبَ فيه وقوسا (١)

ويحمل الشاعر - في أحيان كثيرة - الزمن جريرة ظهور المشيب، وليس له ان يخدع نفسه لذا فليمن نط ناقتة ويهجر محبوبته هجره لطلل دارس، هذا إذا كان عنده بقية من تعقل، كما في قول علقمة بن عبده:

فدعْها وسلّ الهمّ عنك بجسرةٍ كهَمّ ك فيها بالرداف خبيبُ (٢)

أو في قول عبدة بن الطبيب:

فعدّ عنها ولا تشغلك عن عملٍ إنّ الصبابة بعد الشيب تضليلُ (٣)

ومن حسن الحظ ان الزلة تدوم قليلاً لدى هذا العاشق العامل نسبياً، كالذي نقرؤه عند عبدة بن الطبيب:

وللأحِبِّ ةِ أيامٌ تذكّرها وللنوى قبل يومِ البين تأويلُ (٤)

ولكن الحكمة عند الشعوب أن ليس للمرأة أن تهوى شيخاً مُ سنّاً، فيحاول الشاعر - الشيخ - إبعاد فكرة أن يحول المشيب دون القيام بالواجبات اليومية، كما في قول ذي الاصبغ العدواني:

إن تزعمَا أنني كبرت فلم أُلَفَ ثَقِيلاً نكساً ولا ورعا (٥)

(١) ديوانه: ٥٢٧.

(٢) ديوانه: ٢٢٨.

(٣) ديوانه: ٥٩.

(٤) ديوانه: ٥٩.

(٥) ديوانه: ٦٠.

ويرى "فاديه" ان البكاء على الأطلال هو الشكل الأكثر براعة في الحبّ القائم على التذكر وفيه يحاول الشاعر إبراز الذكرى. ولكن ما الذي جعلها شعرية في نظر البدوي العديم الإجادة للتعبير النفسي، وغير الجدير بال حوار الشعري، وفضلاً عن ذلك الحرص على ان يترك في الطلل العديد من التفاصيل المحسوسة، ويعود الأمر إلى أسباب منها ما تتعلق بمماثلات لطيفة بين المحبوبة والطلل، ومنها ما تتعلق بالسهولة الأدبية التي تتيح دمج الموضوعات القديمة ضمن البكاء على الأطلال<sup>(١)</sup>.

ولكن أحقاً ينزع الشيب إلى إضفاء مسحة شعرية خيالية على ذكرى المحبوبة؟ ان فكرة اللقاء بمحبوبة تعيش في ظل ضغوط اجتماعية صعبة لعلّ غاية من الجراة في تقاليد الشيب . وبالمقابل يبقى الطلل مهيباً لطقوس الذكرى، وتتماثل شخصية المحبوبة قليلاً مع الطلل، لذا يصبح مطلب الشاعر العثور في ذلك الطلل على هيئة وجه المحبوبة أو آثار الأهل الذين ورحلوا وتعلّق الشاعر بهم<sup>(٢)</sup>.

بل يجد الشاعر نفسه أما م الطلل لإشباع حاجته من الحب والذكرى ويصبح الهدف من زيارة الطلل لقضاء حاجته من الحبيبة، بل قد تحمله على العودة إلى مكان غرامه، كما رُفِّعاً عند امرئ القيس:

خَلِيلِي مَرَّ ابِي عَلَى أُمِّ جَنْدَبٍ      لِنَقْضِي لِبَانَاتِ الْفَوَادِ الْمُعَذِّبِ<sup>(٣)</sup>

أما الموصفات الجمالية التي ينشدها الشاعر في محبوبته فبين "فاديه" تلك الموصفات كأن تكون معتدلة الخلق على الرغم من أن الشعور البدوي بالتناسق غير شعور الغرب وشكلها تماماً مما يجعلها تشبه التمثال أو الدمية. فضلاً عن صفات

(١) ينظر: الغزل عند العرب، فاديه، ٦٣/١.

(٢) ينظر: الغزل عند العرب: فاديه ٦٤/١.

(٣) ديوانه: ١٧٠.



أخرى أن تكون حوراء بيضوية الوجه قنواء أسيلة الخد، عيطاء، حسنة المعصم، إلى آخره من الفهوت التي تكون منوطة بخيال شهواني وليس من داعٍ لاستخراج تصميم عذري من هذه الأوصاف<sup>(١)</sup>.

وثمة ملامح تبرز، بالمقابل، بصورة أدق، الفكرة التي كوّنها الشاعر عن محبوبته أن توحى إليه بالاحترام وجمالها هذا لا يقاوم ويفعل فعل السحر الخارق للطبيعة. ولكن الأمر متعلق بمكانتها الاجتماعية وشرف قبيلتها ولأنها سيدة معتبرة وبنت قوم أحرار - وهذا الأمر لا يسري على كل نساء أهل البداوة - وانها لم تعرف البؤس ولم تعرف الخدمة فهناك من يؤدي لها أعمالها، وانها لا تخرج من بيتها إلا نادراً. وأنها تعيش القيم والترف وتستعمل السواك وتزين كثيراً وعطرها المسك<sup>(٢)</sup>.

ويطرح "فاديه" السؤال عن قوة تعلق الشاعر بمحبوبته ومما يعاينيه؟ وإذا وُضع وهم "البكاء على الأطلال" العابر جانباً، فأى قانون وأي مبدأ وأي تقاليد تجعل الحبيب في موقف التبعية بالنسبة للمحوبة<sup>(٣)</sup>؟ فالنّسب "بالنسبة للواقع تعبير غير ملائم له إطلاقاً، إذ كيف تسنىّ لحب معيش ان يتحول إلى عبارات نسب؟ فمن الصعب - باستثناء عنزة وامرئ القيس اللذين دخلا بسهولة أكثر من اللازم في الدورة الروائية - معرفة مناسبة نظم الشعراء البدو نسبهم فيها، الأمر الذي يعطي النّسب طابعاً اصطناعياً غير متجانس ومتعلقاً في آن واحد بالتجربة المعيشة والتقليد الأدبي"<sup>(٤)</sup>.

إلى ان ينتهي بالقول: "وهكذا فان الحب كموضوع مركزي يعالج من أجل ذاته، غير موجود، إذا صحّ التعبير، لدى الشاعر البدوي الذي يتجنبه ذاكراً شرطه

(١) الغزل عند العرب ٧١/١-٧٢.

(٢) ينظر: الغزل عند العرب: فاديه ٧٢/١-٨١.

(٣) الغزل عند العرب: فاديه ٨٢/١.

(٤) الغزل عند العرب، فاديه ٨٢/١.

اللازم كالعهد والحاجة تارة، أو مرتداً في لحظات أُخِر إلى الاستعارات التي يعبر عنها بطريقة ناقصة تارة أخرى. ولكن أنى لنا ان نعجب عندما نعلم كم هو قليل ميل العقلية البدوية إلى التجريد!"<sup>(١)</sup>.

---

(١) الغزل عند العرب: فاديه ٩٤/١.